السيــرة الذاتية وملامحها فى الأدب العربى المعاصر

سيدابراهيم آرمن*

تاريخ الوصول: ١٣٩٠/٧/١١هـ ش
تاريخ القبول: ١٣٩٠/٧/٢٥هـ ش

الملخص

مــرّ النثر العربى خــلال تطوره بمراحل مختلفة؛ والأدب العربى بشــكل عــام كان مهبطا لأجناس أدبية ظهرت لها فى العصر الحاضر عناصر فنية.يرى قلة من النقاد أن بعض الأجناس الأدبية نثرا – كالرواية، والمســرحية، و... - مأخوذة من الغرب بينما إذا أمعنا النظر نجد نماذج منها فى أدبنا العربى القديم، وإن كان القدماء لم يعرفوا مصطلحاتها التى نشــأت حديثا، حتى ولو أن الأدباء المعاصرين فى بعض عناصرها تأثروا بالغرب.

تعتبر التراجم والســير من الأجناس النثرية القديمة فى الآداب العالمية بشكل عام والأدب العربى بشــكل خاص لأنها قديمة قدم الإنسان، والسيرة الذاتية شعبة من التراجم والسير، يقوم مؤلفها بســرد مراحل حياته الشخصية بقلمه.يهدف هذا المقال إلى إحصاء الدراسات الموجودة فى هذا المجال كما يتطرق إلى مدلول السيرة الذاتية لدى الباحثين والنقاد وأخيرا يقدّم أهم ملامح هذا الفن الأدبى وشروطه.

الكلمــات الدليلية: التراجم والســير، الســيرة الذاتية، الترجمة الشــخصية، النثر الفنى، العناصر الفنية، العصر الحديث.

*. أستاذ مساعد بجامعة آزاد الإسلامية فى كرج، إيران. shams1516@yahoo.com

المقدمة

اعتنـــى النقاد برصـــد الفنون الأدبية نظمـــا ونثرا منذ عهود بعيـــدة ولكن فن الترجمة الذاتية بالرغم من رسوخ جذورها فى تاريخ الأدب العربى لم يشهد نقاشا جادا حتى فى العصر الراهن ولعل السبب يعود إلى تباين الآراء حول وجود السيرة الذاتية فـــى الأدب العربى.كما أن لقلة النماذج الفنية لهذا النوع الأدبى تأثيرا فى ضآلة الدراســـات التى تهدف إلى تحليله ونقده.ولكـــن بالرغم من هذا يرى بعض النقاد والباحثين أن السيرة الذاتية «موجودة فى أدبنا منذ أزمان بعيدة وإن كان القدماء لم يعرفوا المصطلح الذى هو حديث النشأة، ليس فى أدبنا العربى وحده، بل فى الآداب الغربية أيضا.» (إبراهيم عبدالدايم، ١٩٧٤م: ج)

أما الدراسات القليلة التى بين أيدينا حول الترجمة الذاتية فيميل معظمها إلى تناول هذا المفهوم بشكل موجز وبتقديم نماذج منه وطالما نجد النقاد أشاروا إلى هذا الجنس الأدبى ضمن إشارتهم إلى التراجم العامة والسير الغيرية حيث أشاروا إلى الســـيرة الذاتية إشـــارة عابرة موجزة ولم نعثر على دراســـات مستقلة تمنحنا مفهوما فنيـــا للترجمة الذاتية واضح المعالم مجلـــو الملامح كما أن هناك تباينا كثيرا فى الآراء حول مفهومه الفنى.

ويبـــدو أن أقـــدم «البحوث فى التراجم الذاتية فـــى الأدب العربى هو ما كتبه المستشـــرق فرانتز روزنتال بعنوان "التراجـــم الذاتية للمؤلفين العرب" وهو بحث نشر فى مجلة Orientalia سنة ١٩٣٥م ونشر ملخصا فى كتاب "الموت والعبقرية" الذى أصدره عبدالرحمن بدوى ســـنة ١٩٤٥م.» (عبدالغنى حسن، لاتا: ٢٧) كما أن هناك مقالا جيدا «فى هذا الموضوع كتبه المستشرق الألمانى كارل بروكلمان ســـنة ١٩٥٢م ونشـــر فى كتاب "المنتقى من دراسات المستشرقين" الذى نشره الدكتور صلاح الدين المنجد ســـنة ١٩٥٥م وعنـــوان المقال أو البحث "ما صنف علماء العرب فى أحوال أنفســـهم"؛ وإذا كان بروكلمان قدوفى الموضوع حقه فيما يتصـــل بالمؤلفين القدامى، فإنه لم يذكر مـــن المحدثين إلا محمد كرد على فى مذكراته، وطه حسين فى أيامه.» (المصدر نفسه: ٢٧)

وأشار يحيى إبراهيم عبدالدايم إلى محاولة شوقى ضيف فى الكتيب الذى كتبه فى سلســـلة فنون الأدب العربى سنة ١٩٥٦م [بعنوان "الترجمة الشخصية"] وقد

تأثــر فيه بروزنتال تأثرا واضحا.» (إبراهيم عبدالدايم، ١٩٧٤م: د) وذكر عبدالدايم إلــى جانب تلك الدراســات أربع محاولات تناولت الترجمة الذاتية تناولا ســريعا وهــى كتب تعالج موضوعات أو فنونا أخرى إلى جانــب الترجمة الذاتية والأولى، دراســة موجزة كتبها المستشــرق "جوســتاف جرونباوم" فى كتابه عن "حضارة الإسلام" الذى نشره مترجما إلى العربية عام ١٩٥٦م ويذكر أن دراسته للترجمة الذاتيــة مضمنــة فى ثنايا فصل بعنوان "الأدب والتاريخ" مشــيرا إلى أنه أرســل أحكاما حول الترجمة الذاتية، خاصة فى التراث العربى، لا تخلو من تعجل وتحيز وقلــة الإحاطة بمادة موضوعه.أمــا المحاولة الثانية، فاضطلع بها إحســان عباس وأثبتها فى كتابه "فن الســير" الذى نشــره عــام ١٩٥٦م، إذ عرض عرضا موجزا لتطور السيرة الذاتية فى الأدب العربى حتى العصر الحديث والدراسة الثالثة، هى التى عرض عبدالمحســن بدر لدراســة الترجمة الذاتيــة الروائية فى فصل طويل من كتــاب "تطور الرواية العربية الحديثة فى مصر" وســمى هــذا الفصل "رواية الترجمة الذاتية" والمحاولة الأخيرة التى يشــير إليها عبدالدايم، ليست أيضا عملا مفــردا مقصورا على الترجمة الذاتية بل هى مضمنة كتابا بعنوان "الســيرة تاريخ وفن" لماهر حســن فهمى الذى نشر عام ١٩٧٠م.ثم يذكر إبراهيم عبدالدايم أنه فيما عدا هذه المحاولات الموجزة لم تقع عينه على دراســة عن الترجمة الذاتية العربية مشيرا إلى أن كل هذه المحاولات لا تمنحنا مفهوما فنيا للترجمة الذاتية. (المصدر نفسه: د- هـ)

وفى منتصف الســبعينات عندما دوّن يحيــى إبراهيم عبدالدايم كتابه بعنوان "الترجمــة الذاتية فى الأدب العربى الحديث" اعترف أنه عانى «كثيرا فى ســبيل الاهتداء إلى نتائج هذه الدراسة.» (المصدر نفسه: ج) ويقدم المؤلف جهدا مشكورا فى هذا الكتاب إذ يهتم بالترجمة الذاتية ومدلولها وتطورها فى الأدب الغربى كما يقدم لمحة عنها فى التراث العربى ويواصل بحثه لدراســة معالم الترجمة الذاتية فــى الأدب العربى الحديث.وتطرق أنيس المقدســى فى فصل من كتابه "الفنون الأدبية وأعلامها فى النهضة العربية الحديثة" الذى صدر عام ١٩٨٠م، إلى "السيرة فى الأدب الحديث وأعلامها" غير أنه لم يشر فى هذا الفصل إلى السيرة الذاتية إلا فى صفحات قليلة، كما أنه لم يقدم شيئا جديدا فى هذا الشأن.

وهكذا يظل جنس السيرة الذاتية مغفولا بعد دراسة إبراهيم عبدالدايم لفترة تستغرق حوالى عشرين عاما عندما صدر كتاب "أدب السيرة الذاتية " عام ١٩٩٨م لعبدالعزيز شرف الذى يعالج هذا الجنس الأدبى من زوايا مختلفة وتليه دراسة أخرى للباحثة التونسية فوزية الصفار عام ١٩٩٩م عنوانها "الترجمة الذاتية فى الأدب العربى الحديث: كتاب سبعون لميخائيل نعيمة نموذجا". وبالرغم من أن هناك كتبا مترجمة أخرى عن اللغة الأوروبية ككتاب "السيرة الذاتية؛ الميثاق والتاريخ الأدبى" لفليب لوجون الذى ترجمه وقدم له عمر حلى عام ١٩٩٤م إلا أن هذا الخمول – إغفال السيرة الذاتية لعشرين عاما - إن دلّ على شيء فإنما يدلّ على إهمال النقاد العرب السيرة الذاتية إهمالا يكاد يكون عديما بالنسبة إلى كمّ النتاجات الأدبية المعاصرة فى هذا المجال إذا غضضنا الطرف عن جذور السيرة الذاتية وبعض نماذجها فى الأدب العربى القديم كما اعترف بها بعض الباحثين.

وبانتهاء القرن العشرين لايمكن لنا أن نحصى إلا عددا أقل من عشرة بحوث درست فن الترجمة الذاتية دراسة متأنية بينما نجد مئات الدراسات النقدية الجادة التى تصدت للظواهر الروائية والقصصية والمسرحية وغيرها من الأجناس الأدبية المعاصرة.ومنذ بزوغ فجر القرن الواحد والعشرين حتى نهاية العقد الأول منه ظهرت دراسات أخرى تناولت هذا الجس الأدبى مستمدة من الدراسات السابقة ولكن بالتركيز على نماذج للسير الذاتية لكتّاب معروفين أو بالتركيز على بلدان معينة. فهاهو عبدالقادر الشاوى الناقد المغربى الذى ألف عام ٢٠٠٠م فى هذا المجال كتابا يحمل عنوان "الكتابة والوجود" معالجا ظاهرة السيرة الذاتية فى المغرب كما لجأت تهانى عبدالفتاح شاكر إلى تأليف كتاب عام ٢٠٠٢م بعنوان "السيرة الذاتية فى الأدب العربى" لتدرس ثلاث سير ذاتية لفدوى طوقان وجبرا إبرهيم جبرا وإحسان عباس كنماذج فنية حية لتحليل عناصر بنائه الفنى تحليلا أدبيا متكاملا بعد أن حددت مفهوم السيرة الذاتية وتعرضت لظروف نشأتها وطبيعتها والعوامل المؤثرة فيها وبينت ملامح تطورها وأوجه الشبه والاختلاف بينها وبين بعض الفنون الأدبية القريبة منها؛ وأخيرا شهد عام ٢٠٠٥م صدور دراسة أخرى فى هذا المجال قدمها محمد الباردى بعنوان "عندما تتكلم الذات؛ السيرة الذاتية فى الأدب العربى الحديث" ولكنه نراه يفنّد آراء سابقيه بشأن أصالة جذور السيرة الذاتية فى الأدب

العربى القديم وسنتطرق إلى بعض آرائه فى هذا المقال.

هــذا وإن كاتب هذه الســطور لايدعى أنه راجع جميــع المكتبات العربية فى كافة البلدان العربية – وهذا أمر يكاد يكون مســتحيلا - ولكنه بذل جهودا وفيرة بحثا عن مصادر ومراجع تناولت هذا الجس الأدبى دراســة نقدية شاملة، ولاريب أن هناک جامعات عربية كثيرة تقدم سنويا عددا لايحصى من الرسائل والأطاريح الجامعية وبالتأكيد هناک بحوث جامعية كثيرة نوقشت فى هذا المجال ولم تبصر النور أو على وشک الطبع أو طبعت ولم يحصل راقم السطور عليها.

السيرة الذاتية وكثرة التعريفات

«إن لفظتى "ترجمة" و"سيرة" كانتا تدوران على معنى "تاريخ الحياة" وقد اتخذ التأريخ للفرد صورا مختلفة لدى العرب، وكانت "السيرة" أولى هذه الصور، وقصد بها حياة الرســول الكريم ومغازيه وإن لم يمنع ذلک وجود "سيرة معاوية وبنى أمية" لعوانة الكلبى (المتوفى سنة ١٤٧ق)،... وقد ظهرت فيما يبدو فى وقت ظهور "سيرة ابن إســحاق" (المتوفى سنة ١٥١ق)... وظلت السيرة عصورا يقتصر استعمالها على بيان حياة الرســول، ثم تطور الاســتعمال فى عصور تالية، فاستعملت بمعنى حياة الشخص بصفة عامة.» (إبراهيم عبد الدايم، ١٩٧٤م: ٣١-٣٠)

وعندما ألف أحمد بن يوســف ابن الداية - الكاتب المصرى- كتابا فى "ســيرة أحمد بن طولون" انتقل لأول مرة استعمال لفظة "السيرة " من سيرة النبى(ص) إلى ســيرة غيره من الرجال، وفى القرن الخامس الهجرى عندما نشــر الســلطان محمــود الغزنوى راية الإســلام فى الهنــد وما جاورها، ألقت الأقــدار لأبى النصر العتبى (المتوفى ســنة ۴۲۷ق) أن يتصل بالأمراء الغزنويين، وأن يشهد عن كثب جلائل الأعمال التى قام بها الســلطان محمود، فألف كتابا أسماه "اليمينى" نسبة إلى يمين الدولة - وهو لقب السلطان محمود- وبسط فيه ترجمة حياته وترجمة أبيه سبكتكين، ولقيت هذه السيرة من القبول فى البلاد الإسلامية ما جعل الأدباء يتسابقون إلى شرحها إذ قام بشرحها جماعة من الكتّاب أمثال المنينى الدمشقى فــى "الفتح الوهبى علــى تاريخ أبى نصر العتبى"، والكرمانــى، والخوارزمى، وابن محفوظ، وحميد الدين. (عبد الغنى حسن، لاتا: ٢٩-٢٨) و«اتسع تطور "السيرة"

أيضا ليشـمل "سيرة سيف بن ذى يزن"، و"سـيرة عنترة"، وما أشبه من الحياة الفردية لأبطال السير الشعبية.» (إبراهيم عبدالدايم، ١٩٧٤م: ٣١)

أما كلمـة "الترجمة" فيرى يحيـى إبراهيم عبدالدايم أنهـا دخلت إلى اللغة العربية عن اللغة الآرامية، ولكنه لم يشـر إلـى أنها متى دخلت إلى اللغة العربية، وعـلام كانت تدل منـذ الدخول؛ ولكنـه يقول: «ولم يكـن الاصطلاح قد جرى على اسـتعمالها، فيما يبدو إلا فى أوائل القرن السـابع الهجرى، حين استخدمها "ياقوت" فى معجمه بمعنى "حياة الشـخص" ويرجح هـذا الظن، أن "أبا الفرج" فى كتاب "الأغانى" لم يسـتعمل لفظة "ترجمة" عند كلامه على حيوات الشعراء وغيرهم، وكان يسـبق كلامه بمثـل قوله: "خبر أبى قطيفة، ونسـبه" أو "أخبار بشـار بن برد، ونسبه".» (إبراهيم عبدالدايم، ١٩٧٤م: ٣١) ويرى الباحثان يحيى إبراهيم عبدالدايم، ومحمد عبدالغنى حسن أن هناك لا فرق بين كلمتى"سيرة" و"ترجمـة"، إذ تدل الأولى على "التاريخ المسـهب للحياة" والثانية على "التاريخ الموجز لحياة الفرد". (عبدالغنى حسـن، لاتـا: ٢٨؛ وإبراهيم عبدالدايم، ١٩٧٤م: ٣١) ويواصل إبراهيم عبدالدايم أن السـابقين إذا كانوا «يفرقون فى الاسـتعمال بين اللفظين، فإن الاصطلاح الحديث لايفرق بينهما كثيرا، بل يستخدم إحداهما مرادفـة للأخرى، ومن ثم جاء الاصطلاح المعاصر "الترجمة أو السـيرة الذاتية".» (إبراهيم عبدالدايم، ١٩٧٤م: ٣١)

أما بشـأن تعريف هذا الجنـس الأدبى فلايوجد بين الدراسـات التى تناولته دراسة تقدم لنا حدا جامعا مانعا له وهذا يؤدى إلى اعتبارنا السيرة الذاتية من أكثر الأجناس استعصاء على التعريف. (عبدالفتاح شاكر، ٢٠٠٢م: ١٤)

عرض جبور عبدالنور – قبل أكثر من ثلاثة عقود - فى معجمه الأدبى تعريفا للسـيرة الذاتية: «كتاب يروى حياة المؤلف بقلمه، وهو يختلف مادة ومنهجا عن المذكرات أو اليوميات.» (عبدالنور، ١٩٧٩م: ١٤٣) والباحثة الإيرانية سـيما داد فى معجمها للمصطلحات الأدبيـة أيضا تقدم تعريفا لايختلف كثيرا عن التعريف السـابق إذ تقول: «الترجمة الشـخصية فى اللغة تعنى شرح حياة الإنسان بقلمه. فالترجمة الشـخصية فرع من التراجم والسـير وشـعبة مـن الأدب الاعترافى.» (داد، ١٣٨٠ش: ١٦١)

فهناك من يقول: «التراجم الذاتية أو الشـخصية: هى أن يكتب المرء بنفسـه تاريخ نفسه، فيسـجل حوادثه وأخباره، ويسرد أعماله وآثاره، ويذكر أيام طفولته وشـبابه وكهولتـه وماجرى له فيها من أحـداث تعظم وتضؤل تبعـا لأهميته.» (عبدالغنى حسـن، لاتا: ٢٣) ومن يقول: «هو نوع من الأدب يجمع بين التحرى التاريخـى والإمتاع القصصى.» (المقدسـى، ١٩٨٠م: ٥٤٧) وهذا التعريف سـاقه أنيس المقدسـى لمفهوم السيرة الغيرية والسيرة الذاتية معا فى الصفحات القليلة التى خصها بالسيرة.

ويميل عبدالعزيز شـرف إلى أن السـيرة الذاتية: «تعنى حرفيا ترجمة "حياة إنسـان" كما يراها هو.» (شـرف، ١٩٨٨م: ٢٧) ويواصل قوله: «إن السيرة الذاتية تعبر عن النشـاط الذهنى والنشـاط العملى فى حياة الإنسـان من خلال "نشاط لغوى"، الأمر الذى يجعل من السـيرة الذاتية "قصة حياة" نرويها للأخرين؛ وكأن من طبيعة "الحياة" أن تتخذ طابع الرواية المسـرودة أو القابلة للسـرد.» (شرف، ١٩٩٨م: ٢٧) ويرى إحسـان عباس أن الترجمة الذاتية حديث عن النفس يتبناه الأديب أو الفنان ولكنه يعتقد أن هذا الحديث ليس حديثا ساذجا عن النفس ولا هى تدوين للمفاخر والمآثر. (عباس، ١٩٩٦م: ٩١) بل يشـير إلى بعض الشـروط الفنيـة لهذا الجنس الأدبى سنشـير إليه وبالرغم من هذه الشـروط التى وضعها لايقدم تعريفا محددا عن السيرة الذاتية.

ويرى يحيى إبراهيم عبدالدايم أن: «الترجمة الذاتية الفنية ليسـت هى تلك التى يكتبها صاحبها على شكل "مذكرات" يعنى فيها بتصوير الأحداث التاريخية أكثر من عناتيه بتصوير واقعه الذاتى، وليست هى التى تكتب على صورة "ذكريات" يعنى فيها صاحبها بتصوير البيئة والمجتمع والمشاهدات أكثر من عناتيه بتصوير ذاته، وليسـت هى المكتوبة على شـكل "يوميات" تبدو فيها الأحداث على نحو متقطع غير رتيب، وليسـت فى آخر الأمر "اعترافات" يخـرج فيها صاحبها على نهـج الاعتراف الصحيح، وليسـت هـى الروايـة الفنية التى تعتمد فـى أحداثها ومواقفها على الحياة الخاصة لكاتبها، فكل هذه الأشـكال فيها ملامح من الترجمة الذاتية، وليسـت هى لأنها تفتقر إلى كثير من الأسس التى تعتمد عليها الترجمة الذاتية الفنية.» (إبراهيم عبدالدايم، ١٩٧٤م: ٣) ولكنه يحاول عرض تعريف فنى

للســيرة الذاتية قائلا: «والترجمــة الذاتية الفنية، هى التــى يصوغها صاحبها فى صورة مترابطة، على أساس من الوحدة والاتساق فى البناء والروح كما سلف وفى أســلوب أدبى قادر على أن ينقل إلينا محتوى وافيا كاملا، عن تاريخه الشــخصى على نحو موجز، حافل بالتجارب والخبرات المنوعة الخصبة، وهذا الأســلوب يقوم على جمال العرض، وحســن التقسيم، وعذوبة العبارة، وحلاوة النص الأدبى، وبث الحياة والحركة فى تصوير الوقائع والشــخصيات، وفيما بتمثله من حواره مستعينا بعناصــر ضئيلة مــن الخيال لربط أجــزاء عمله، حتى تبدو ترجمتــه الذاتية فى صورة متماســكة محكمة، على ألا يسترسل مع التخيل والتصور حتى لاينأى عن الترجمــة الذاتية، خاصة إذا كان يكتب ترجمته فى قالب روائى.» ولكن أســهب يحيى إبراهيم عبدالدايم فى وصف الأســلوب الأدبــى للترجمتة الذاتية أكثر من وصف البناء الفنى لها. (عبدالفتاح شاكر، ٢٠٠٢م: ١٢)

ومــن الباحثين الأجانب نرى فيليب لوجون يقول فى تعريف الســيرة الذاتية: «حكى اســتعادى نثرى، يقوم به شخص واقعى عن وجوده الخاص، وذلك عندما يركــز علــى حياته الفردية وعلى تاريخ شــخصيته بصفة خاصــة.» (لوجون، لاتا: ٢٢) تعتقد الباحثة تهانى عبدالفتاح شــاكر أن فيليب لوجون قد يكون من أكثر الباحثين تحريا للدقة فى صياغة تعريفه للســيرة الذاتية، إذ يبين ثلاث نقاط: ١. شكل الكلام، وهو سرد لحياة صاحب السيرة. ٢. موضوع السيرة، وهو حياة الكاتب بصفــة خاصة. ٣. وجوب التطابق بين المؤلف، والراوى، والشــخصية الرئيســة فى السيرة. (عبدالفتاح شاكر، ٢٠٠٢م: ١٥-١٤)

والباحثة تصرح بالإشكاليات التى طرحها لوجون فى تعريفه حيث لاحظ الأخير أن هناك عملا أدبيا لايحتوى على عنوان فرعى يبين نوعه هل هو سيرة ذاتية أم رواية، ولايتضمن أى إشارة تبين جنسه الأدبى، وفى الوقت نفسه لايذكر المؤلف اسم الشخصية الرئيسة فى العمل وتوصى الباحثة تهانى عبدالفتاح أن نشترط فى تعريف السيرة الذاتية، أن يصرح فيها الكاتب بأسلوب مباشر أو غير مباشر بأن ما يكتبه هو سيرة ذاتية. (المصدر نفسه: ١٥) وفطنت تهانى عبدالفتاح إلى إشكالية أخرى فى تعريف لوجون وهى أنه لم يجعل السرد الاستعادى (سرد حياة المؤلف الماضية) مشــروطا بأى قيد ينظمه فى بناء فنى حيث لو تحققت جميع شــروط

السـيرة الذاتية، وتم سـرد الأحداث فيها بطريقة عشوائية لايربط بينها خيط من التسلسـل الفنى فإننا لانسـتطيع أن نعد العمل سيرة ذاتية. (المصدر نفسه: ١٥) ومن هذا المنطلق تقدم لنا التعريف الذى وضعه لوجون ببعض التعديلات الصائبة: «حكى استعادى نثرى، يتسـم بالتماسك، والتسلسل فى سرد الأحداث يقوم به شـخص واقعى عن وجوده الخاص، وذلك عندمـا يركز على حياته الفردية وعلى تاريخ شـخصيته بصفة خاصة، ويشـترط فيه أن يصرح الكاتب بأسلوب مباشر أو غير مباشر أن ما يكتبه هو سيرة ذاتية.» (المصدر نفسه: ١٦)

وهكذا نرى أن الذين خاضوا غمار تجربة وضع تعريف للسـيرة الذاتية، يُصَنَّفُ معظم تعريفاتهم فى قسـمين: القسم الأول: هو الذى يرى الباحث فيه أن السيرة الذاتية نوع خاص من السـيرة يسرد فيها المؤلف حياته بقلمه. والقسم الثانى: هو الـذى يعتمد على تعريف السـيرة الذاتية من خلال مقارنتهـا بغيرها من الأنواع الأدبية. (المصدر نفسه: ١٢-١١) وإن كثيرا من النقاد والدارسين مالوا إلى القسم الأول من هذا التعريف.

السيرة الذاتية؛ شروطها وملامحها

اعتنـى النقاد بذكر الفروق الموجودة بين السـيرة الذاتيـة والأجناس الأدبية الأخرى القريبة منها- كالسيرة الغيرية، والتاريخ، والمذكرات، واليوميات، والرواية - وذهب معظمهم إلى إصدار آراء متفقة إلى حد ما بغية الوصول إلى ملامح فنية محددة لهذا الجنس الأدبى؛ فيرى النقاد والدارسون أن السيرة الذاتية تختلف عن السـيرة الغيرية، لأن الأولى ذاتية يكـون كاتبها غارقا فى "الأنا" بحيث ينقل نقلا مباشرا من داخل الذات بالاعتماد على التذكر القوى لذكرياته، بينما يلجأ الكاتب فـى الثانية إلى النقل عن طريق الوثائق والمدونات، والمشـاهدات، والملاحظات بغـضّ النظر عن ذاته، ما يجعلـه موضوعيا فى كتابة السـيرة وإنجازها. (عباس، ١٩٩٦م: ١٠٣-١٠٢؛ وإبراهيـم عبدالدايم، ١٩٧٤م: ٢٦-٢٥؛ والباردى، ٢٠٠٥م: ٩) فكاتب السـيرة الغيرية فـى كثير من الأحيان لايمكنه أن يصف أحاسـيس شـخصية وانفعالاتها ولكن كاتب السـيرة الذاتية أكثر مقدرة على سبر أغوار ذاته وكشف ما يجول فيها، فهو يقف موقف الشاهد والقاضى، بينما يقف كاتب السيرة

الذاتية موقف الشـاهد فحسب، نظرا لاسـتقاء مادته من العالم المحيط به، وبهذا يمكن القول إن كاتب السيرة الذاتية يقدم الشخصية من الداخل إلى الخارج، أما كاتب السـيرة الغيرية فإنه يقدم الشـخصية من الخارج إلى الداخل. هذا وهناك تطابق بين السـارد، والشخصية الرئيسة، والمبدع فى السيرة الذاتية؛ ولكن السيرة الغيرية لايمكن فيها أن يتطابق المبدع مع الشخصية الرئيسة. (عبدالفتاح شاكر، ٢٠٠٢م: ١٩-١٨)

أما موقف السـيرة بنوعيها الذاتية والغيرية من التاريخ، فإنها فى بعض الأحيان تفترب من التاريخ إلى درجة يعدها بعض الباحثين لونا من ألوان التاريخ ولا غرابة لأنها نشـأت فى حضن التاريخ، ولكن السـيرة الغيرية ألصق بالتاريخ لأن موادها مسـتمدة من الوثائق التاريخية بخلاف السـيرة الذاتية التى تتجه إلى سبر أغوار الإنسان. (المصدر نفسـه: ١٨-١٧) فالسيرة الذاتية تبتعد عن التاريخ لأن الراوى يعتمد على الذاكرة لخلق الأحداث، وإن ظل عاجزا عن اسـترجاع الذكريات يلجأ إلى الخيال الذى يعد تشويها للتاريخ وتزويرا له. (المصدر نفسه: ١٨)

والمذكرات تختلف عن السـيرة الذاتية لأن مادتها أوسـع مدى منها إذ تركز المذكرات على سرد الأحداث العامة والتاريخية دون التعليق على الحياة الشخصية لكاتـب المذكرات. (إبراهيم عبدالدايم، ١٩٧٤م: ٣؛ وعبدالفتاح شـاكر، ٢٠٠٢م: ٢٠؛ والبـاردى، ٢٠٠٥م: ٨) واليوميـات مع أنها «أكثر قربا من السـيرة الذاتية» (عبدالفتاح شـاكر، ٢٠٠٢م: ٢٠)، ولكنها تختلف عنهـا باعتبار أحداثها متقطعة غير رتيبة (إبراهيم عبدالدايم، ١٩٧٤م: ٣)، وافتقارها إلى المنظور الاستعادى فى القص. (عبدالفتاح شـاكر، ٢٠٠٢م: ٢٠) وهناك مسـافة زمنية بين لحظة الكتابة ولحظة الحدث بين الجنسـين، إذ المسـافة الزمينة التى تفصل بين زمن الكتابة وزمن التجربة تكون فى السـيرة الذاتية أوسع منها فى اليوميات، كما أن الإحالة المرجعية فى اليوميات تمتاز بالدقة نظرا لقرب لحظة التدوين من لحظة التجربة. (الباردى، ٢٠٠٥م: ٨)

أمـا الترجمة الذاتية لها القـدرة أن تميل نحو الرواية وتتخـذ القالب الروائى لتخلق جنسـا جديدا يسمى "برواية السـيرة الذاتية" أو "السيرة الذاتية الروائية" وهذا الأمر جعل الرواية «أكثر الأشكال الفنية قربا من السيرة الذاتية.» (عبدالفتاح

شـــاكر، ٢٠٠٢م: ٢١) وهذا التداخل بينهما يؤدى إلى ظهور فروقات ومشتركات بينهما ندرسها على حدة. أما الفروقات الموجودة بين الجنسين: ١. اعتماد الرواية على الخيال المطلق أو الأســطورة؛ والتزام السيرة الذاتية بتذكر الأحداث الماضية واللجــوء إلى الخيال المقيد. ٢. حرية الكاتب الروائــى فى تناول الزمان والمكان؛ والتزام كاتب الســيرة الذاتية بالزمــكان والمكان. (إبراهيــم عبدالدايم، ١٩٧٤م: ٢٨-٢٧؛ وعبدالفتــاح شــاكر، ٢٠٠٢م: ٢٢-٢١) ٣. جهل القــارىء نهاية الرواية؛ ومعرفته إياها فى السيرة الذاتية، إذا كان صاحب السيرة الذاتية معروفا مرموقا فى المجتمع. (عبدالفتاح شاكر، ٢٠٠٢م: ٢٢)

أما المشــتركات الموجودة بين هذين الجنســين فإنهــا تتمثل فى: ١. وجود التداخل بين الجنســين من حيــث البناء الفنى. (المصدر نفســه: ٢١) ٢. وجود إشــارة المتعة وعنصر التشويق فى الجنســين. (إبراهيم عبدالدايم، ١٩٧٤م: ٢٩؛ وعبدالفتاح شاكر، ٢٠٠٢م: ٢٢)

يمكننا بعد هذا العرض للفروق والمشــتركات بين الســيرة الذاتية والأجناس القريبة منها أن نستشــف بعض الشــروط والملامح الفنية للسيرة الذاتية؛ نحاول ذكر هذه الشروط والملامح وفقا لما يلى:

١. «أخــص ملامح الترجمة الذاتيــة التى تجعلها تنتهى إلــى الفنون الأدبية أن يكون لها بناء مرســوم واضح، يســتطيع كاتبها من خلاله أن يرتب الأحداث والمواقف والشــخصيات التى مرت به ويصوغها صياغــة أدبية محكمة.» (إبراهيم عبدالدايم، ١٩٧٤م: ٤) «ولذلک لاينبغى أن ينظر للسيرة الذاتية - كعمل أدبى- على أنها مجرد ترجمة للحقائق الموجودة خارج النص نفســه؛ لأن الحقائق هذه، والتى كانت ســببا فى إبداع النص ذاته، لم تعد الحقائق نفســها بعد أن اندمجت وامتزجت وكونت العمل الأدبى. بل إن الإحساس الذى تخلقه السيرة الذاتية عملا أدبيا لا علاقة له بالإحساسات التى تزودنا بها الحياة خارج النص، وهو النص الذى يفقد أثره أيضا حينما يتعرض للتلخيص بشكل أو بآخر... فطه حسين لم يسجل حياته فى أخبار مجردة؛ وإنما صورها فى شكل أدبى معين يثير إحساسا معينا.» (شرف، ١٩٩٨م: ٢٠)

٢. تواجــد الصراع فى الســيرة الذاتيــة ومن أجل هذا «حظ الســيرة الذاتية

من البقاء منوط بحظ صاحبها نفسه من عمق الصراع الداخلى أو شدة الصراع الخارجى.» (عباس، ۱۹۹۶م: ۹۸) وهكذ يقوم المترجم عن الذات بتحقيق «خطة مؤثرة لها تثير فى نفس المتلقى لها التعاطف مع صاحبها وتحرک تيار وعيه الباطن وخبيئات وجدانه ليحدث فينا جيشانا عاطفيا وتعاطفا نفسيا مع كاتبها لأنه حين يبسط دخائل نفسه أمام المتلقى، ويفضى له بمكنونات شعوره، يقيم بينه وبين المتلقى رابطة عاطفية لاتقوم إلا بين الصديقين الحميمين.» (إبراهيم عبدالدايم، ۱۹۷۴م: ۱۰) ومثل «كاتب السيرة الذاتية هنا – مثل الشاعر - يعبّر فى تجربته عما فى نفسه من صراع داخلى، سواء أكان تعبيرا عن حالة من حالات نفسه هو، أم عن موقف إنسانى عام تمثله فى حياته.» (شرف، ۱۹۹۸م: ۲۵)

۳. محاولة الصدق، والصراحة، والأمانة، والتجرد فى تصوير الماضى، وساعدت معرفة الإنسان للأسرار النفسية على أن يصور كاتب السيرة الذاتية نفسه تصويرا صادقا بعيدا عن التحيز أو الغرور. (المصدر نفسه: ۲۵) وبالرغم من أن «الصدق الخالص أمر يلحق بالمستحيل والحقيقة الذاتية صدق نسبى، مهما يخلص صاحبها فى نقلها على حالها؛ ولذلک كان الصدق فى السيرة الذاتية "محاولة " لا أمرا متحققا.» (عباس، ۱۹۹۶م: ۱۰۵) ومع أن بعض النقاد رفضوا وجود الكتابة الصريحة عن الذات إلا أن هذه الكتابة عن الذات «ليست نادرة فى الأدب العربى الحديث.» (الباردى، ۲۰۰۵م: ۸۹)

۴. وجود الدوافع فى السيرة الذاتية أمر مؤكد صرح كاتبها بها أم لم يصرح والدوافع هذه عديدة لاتعد ولاتحصى إلا أن تحديد الدافع الرئيسة فى سيرة ذاتية بعينها أمر ممكن. (شرف، ۱۹۹۸م: ۴۵) وهناک من عدد بعضا من هذه الدوافع: كالتبرير، والرغبة فى اتخاذ موقف ذاتى من الحياة، والتخفف من ثورة أو انفعال، وتصوير الحياة المثالية، وتصوير الحياة الفكرية، والرغبة فى استرجاع الذكريات. (إبراهيم عبدالدايم، ۱۹۷۴م: ۳۶-۳۴) وقد يكون لعدم الإشارة إلى الدوافع تأثير أكثر فى حث القارىء على القراءة والمتابعة أو حتى يؤثر إيجابا على فنية السيرة الذاتية.

۵. تتطلب السيرة الذاتية أن يكون بطلها شخصا ذا تميز واضح فى ناحية من النواحى. (عباس، ۱۹۹۶م: ۹۶) ومعظم كتّاب التراجم الذاتية فى الأدب العربى

تحقق لديهم هذا الشرط ولكن «هذه القاعدة لايمكن أن تكون عامة، فليس كاتب السيرة الذاتية من ذوى الشهرة دائما. وإذا كانت السيرة الذاتية فى أغلب الحالات تتويجـا لحياة أدبيـة أو فكرية فمن الهام أن نلاحظ أن بعض هذه الكتابات كانت منطلق النشـاط الإبداعى لدى بعض الكتاب، بل بواسـتطها استطاعوا أن يتحولوا إلى كتّاب مشهورين.» (الباردى، ٢٠٠٥م: ٥٤)

٦. لايرى النقاد والدارسـون لصاحب السيرة الذاتية أن يبدأ بكتابة سيرته فى عمر محدد وسن معينة بل يقدمون الأمثلة للذين بدأوا فى وقت مبكر، ومن هذا المنطلق يقول إحسان عباس: «وليس لدى الكتّاب من عمر محدود يقفون عنده لكتابة سيرهم، فان نيتشـه كتب سيرته وهو فى الأربعين، وكتبها سلامه موسى حين بلغ الستين؛ وأحمد أمين حين تجاوز هذه السن أيضا؛ ولكن لا ريب فى أن الإسراع إلى كتابة الترجمة الذاتية، فى سن مبكرة، يفوّت على كاتبها أمورا كثيرة، فقـد يكتبها قبل أن تتضح له نتائج تطـور خطير فى حياته، وقد يكتبها قبل أن تقف مبادئه فى الحياة واضحة جلية لعينيه. وهناك خطر آخر: وهو أنه يحشد فى سيرته تجارب كان من الممكن أن يفيد منها فى بناء عدة قصص، وفى خلق عدة شخصيات، وفى نظم عدد من القصائد أو استغلالها فى أى فن أدبى آخر؛ وهذا ما وقع فيه الدكتور طه حسـين فى "الأيـام"، فإنه قد "جمّد" تجاربه دفعة واحدة.» (عباس، ١٩٩٦م: ١٠١-١٠٠)

أما الباردى فإنه يقدم تجربة إحصائية للسير الذاتية فى الأدب العربى المعاصر، ويرى أن «أكثر من ٦٢٪ من كتاب السـيرة الذاتية العربية أصدروا مؤلفاتهم فى بداية الشـيخوخة أو فى نهايتا و٢٥٪ من هؤلاء الكتاب صاغوا سيرهم الذاتية فى أواسـط العمر.» (الباردى، ٢٠٠٥م: ٥٦) إذا رأى إحسـان عباس أن الإسراع فى كتابة السيرة الذاتية يفوّت على كاتبها أمورا كثيرة أو يؤدى إلى تجميد التجارب فى السـيرة الذاتية كما فعل طه حسين فإن الباردى يعتقد بشكل غير مباشر أن كتابة السـيرة فى أواسط العمر وفى السـن المبكرة أمر محدود لأن معظم السير الذاتية التى كتبت فـى الأدب العربى الحديث إثارة للجدل هى تلك التى كتبت فى أواسط العمر، ويذكر الأيام لطه حسين تأييدا لهذا القول. (المصدر نفسه: ٥٧)

النتيجة

لاحظنـــا فی هـــذا المقال أن الســـيرة الذاتية كانت ظاهـــرة قديمة فی الأدب العربی ولم يشـــهد هذا الجنس الأدبی دراســـات جادة إذا قارناه بالأجناس الأدبية الأخرى كالرواية والمســـرحية. أما الدارسون الذين ناقشـــوا السيرة الذاتية - سواء كان نقاشـــهم مودعا فی فصل محدد من كتاب بعينه أو كانت دراســـة مستقلة - فإنهم تباينت آراؤهم حول هذا الجنس الأدبی؛ إذ قدّم كل منهم تعريفا للســـيرة الذاتية يختلف جزئيا أو كليا عن الآخر.

أما الملامح الرئيسة للسيرة الذاتية فهی على النحو التالی: ١. وجود بناء مرسوم ضمـــن صياغة أدبية. ٢. توافر عنصر الصـــراع ٣. محاولة الصدق والصراحة والأمانة والتجـــرد فی تصوير الماضی. ۴. وجـــود الدوافع الفنية. ۵. تميّز صاحب الســـيرة الذاتية. ۶. عدم الالتزام بسنّ معينة عند الكتابة عن الذات.

وأخيـــرا حریّ بنا أن نقول فی هذا الموقف إن النقاد العرب حاولوا أن يتعرفوا على الســـيرة الذاتية فی الأدب العربی عن طريق الدراســـات الموجودة فی الآداب الأوروبية بهذا الشـــأن، كما قارنوا كثيرا من النمـــاذج الموجودة فی الأدب العربی بمثيلاتهـــا فـــی الأدب الغربی وهذا الأمر وإن كان لازمـــا فإنه ليس كافيا للوصول إلى الملامح الفنية الموجودة فی السير الذاتية العربية واستخراجها؛ وليتحقق هذا المطلوب من المستحســـن بل من الضروری أن تتم دراســـات مقارنة بين الســـير الذاتية فی الأدبين العربی والفارسی وذلک لوجود العناصر المشتركة الكثيرة بين هذين الأدبين من ناحية، ولاشتراک الإنسان الشرقی الذی يسجل حياته فی كثير من الجوانب النفسية والثقافية والأيديولوجية من ناحية أخرى.

المصادر والمراجع

إبراهيـــم عبدالدايم، يحيـــی. ١٩٧۴م. الترجمة الذاتية فی الأدب العربـــی الحديث. بيروت: دار إحياء التراث الأدبی.

الباردی، محمد. ٢٠٠۵م. عندما تتكلم الذات: السيرة الذاتية فی الأدب العربی الحديث. دمشق: منشورات اتحاد كتاب العرب.

داد، سيما. ١٣٨٠ش. فرهنگ اصطلاحات ادبی. الطبعة الرابعة. طهران: انتشارات مروارید.

الشاوی، عبدالقادر. ٢٠٠٠م. الكتابة والوجود: السيرة الذاتية فی المغرب. المغرب: أفريقيا الشرق.

شرف، عبدالعزيز. ١٩٩٨م. أدب السيرة الذاتية. مصر: الشركة المصرية العالمية للنشر.
ضيف، شوقى. لاتا. الترجمة الشخصية. الطبعة الرابعة. القاهرة: دار المعارف.
عباس، إحسان. ١٩٩٦م. فن السيرة. الطبعة الأولى. الأردن: دار الشروق للنشر والتوزيع.
عبدالغنى حسن، محمد. لاتا. التراجم والسير. الطبعة الثالثة. القاهرة: دار المعارف.
عبدالفتاح شـاكر، تهانى. ٢٠٠٢م. السـيرة الذاتية فى الأدب العربى الحديـث. الطبعة الأولى. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
عبدالنور، جبور. ١٩٧٩م. المعجم الأدبى. الطبعة الأولى. بيروت: دار العلم للملايين.
لوجون، فيليب. ١٩٩٤م. السـيرة الذاتية: الميثاق والتاريـخ الأدبى. ترجمة وتقديم عمر حلى. بيروت: المركز الثقافى العربى.
المقدسـى، أنيس. ١٩٨٠م. الفنون الأدبية وأعلامها فى النهضة العربية الحديثة. الطبعة الثالثة. بيروت: دار العلم للملايين.